الملح

قصة : مكسيم جوركى

ترجمة : محمد عبد اللطيف حجازى

« يا رفيقى .. اذهب الى الملاحات .. هناك يستطيع الانسان دائما أن يجد له عملا ، لأنه عمل شاق لعين لا يمكن لأحد أن يصمد فيه طويلا .. كلهم يفرون .. يمكنك أن تجرب حظك هنـــاك ليوم أو اثنين .. سيدفعون لك حوالى سبعة كوبك مقابل نقل عربة اليد الواحدة ، وهو مبلغ يكفى لأن تعيش عليـــه يوما كاملا .. » .

وسكت محدثى الصياد ، أحب هذه النصيحة ، ثم بصق على الأرض ورفع بصره الى الأفق حيث تلتقى زرقة السماء بزرقة البحر وأخذ يدندن لنفسه لحنا كئيبا .

كنت جالسا الى جواره فى ظل كوخ للصيد ، أنا أفكر ، وهو يصلح سروالا له من القطن السميك .. يتثاءب .. ويتمتم بملاحظات عابسة غير متصلة عن ندرة الأعمال التى يمكن للانسان أن يزاولها فى الوقت الحاضر ، وكيف أن « البحث عن عمل يحتـــاج الكثير من العمل » .. واستطرد محدثى :

ـ وحينما تمل هذا العمل ، يمكنك العودة الى هنا لتستريح وتحدثنا بما شاهدت .. ليس المكان بعيـــدا عن هنا .. خمسة « فرست » فقط .. ايه .. كم هى غريبة هذه الحياة ! .. واستأذنت شاكرا لمحدثى نصيحته ثم بدأت رحلتى الى الملاحات . كان يوما من أيام شهر أغسطس . الجو حار ، والسماء صافية براقة ، والبحر هادىء ساكن تجرى موجاته الزرقاء متتابعة لتنساب على رمال الشاطىء محـــدثة طرطشة ضعيفة يبعث صوتها فى النفس الحزن والأسف . استمر سيرى بحذاء الشاطىء الى أن استطعت أن أميز على البعد مساحات بيضاء غير محددة فوق الرمال الصـــفراء .. انها مدينـــة « أوخاكوف » .. ونظرت خلفى فلم أجد أثرا لكوخ الصيد الذى اختفى وراء كثبان الرمال الصـــفراء البراقة التى انعكس عليها ظل باهت من زرقة البحر

الزبرجدية . لقد أمضيت ليلتى فى هذاالكوخ أســـتمع الى عشرات القصص والآراء الغريبة فجعلنى ذلك فى حـــالةمعنوية سيئة . كان صوت الأمـــواج الحزين متمشيا مع مشاعرى فزاد منحدتها .

وسرعان ما أصبحت الملاحات فى مدىالرؤية . كانت مكونة من ثلاثة شرائح من الأرض تبلغ مساحة الشريحة منهـــاحوالى ربعمائة متر مربع ، يفصلها عن بعضها نطاق من الجسور المنخفضـــةوالخنادق الضيقـــة وهى فى مجموعها تمثل المراحل الثلاثة لاستخراج الملح .الشريحة الأولى تغمرها مياه البحـــر والتى تتبخر تاركة على ســطح الأرضطبقة من الملح ذات لون رمادى باهت تشوبه مسحة خفيفة مناللونالقرنفلى.وفى الشريحة الثانية رأيت الملح يجمع فى أكوام ، ويقوم بهذا العمل عـــددالنسوة تمسك الواحدة منهن جاروفا بيدها وتقف مفروســة فى الطين حتىركبتيها . كن يعملن فى صمت لا تكلم الواحدة منهن الأخرى أو تنادى عليها.كانت هياكلهن السوداء الرمادية تتحرك

فى اعياء شديد دون توقف فوق«الراب»والراب هذا طين براق غليظ القوام ، كاو شديد الملوحة . وفى الشريحة الثالثةكان الرجال يقومون بنقل الملح فى عربات اليد . تنحنى أجسادهم فوق العرباتوكأنما قد ثنى الواحد منهم الى نصفين، يجرون أقدامهم بطريقة آلية ، ويدفعونالعربات فىصمت ، بينما عجلاتالعربات فى احتكاكها وصريرها كأنما توجـــهنداءات الى السماء ينطلق حزينـــا من هذا الصف الطويل من الظهور الآدميةالعارية ، والسماء تصب، نارا حاميـــة تلفح مســـاحات الأرض الرمـــادية ،المبرقشة بأعشاب المياه الملحة وبلورات الملح البراقة .. ويعـــلو فوق صريرالعربات صوت « مقدم العمال » الذى يقف فوق كومة الملح يصب لعناته علىالرجال الذين يفرغون عرباتهـــم تحت قدميه . ويصب الماء فوق الملح منجردلفى يده ثم يقوم بتشكيله فى هيئة هـــرم مستطيل.. كان طويلا ، أسودا كافريقىويلبس قميصـــا أزرقا وسروالا طويلا

أبيضا ، يحرك جاروفه فى الهـــواء ، ويصيح بأعلى صوته على الرجال الذين يدفعون العربات فوق الجسر الخشبى.

وسمعت صوته من بعيد « فرغها على اليسار .. الى اليسار أيها الشيطان.. عليك اللعنة .. انك تستحق خـــزق عينيك .. الى أين تتجه أيها العقرب ؟ » ثم اخذ يمسح عرق وجهه بطرف ثوبه ويسوى الملح بضربات قوية بظهر جاروفه محدثا صـــوتا عميقا خشـــنا كصوت الخنزير دون أن يكف لحظة عن صب لعناته ، والرجال يدفعون عرباتهم بطريقة آلية ثم يفرغونها طبقا لتعليماته « الى اليمين .. الى اليسار .. » ، وحينما ينتهى ذلك يرفعون ظهورهم بصعوبة ثم يعودون أدراجهم لحمل جديد ، خطواتهم قلقة مضـطربة فـــوق الواح الجسر الخشبى المهتزة التى تغـــوص تحت أقدامهم فى الطين الأســـود الغليـظ ، يدفعون عرباتهم الفارغة التى أصـبح صريرها أقل جلبـــة لكنه أكثر تعبـا وضجرا . ويصيح عليهم « المقدم » :

ـ ضعوا فيها قليلا من الفلفل ! .. أيها اللقطاء ! ..

ويســـتمر العمال فى عملهم بنفس الصمت الذليل ، لكن وجوههم المكدودة العابســة التى لطخها التراب والعرق كانت تقلصاتها تكشف أحيانا عما يعتمل فى نفوسهم من غضب واستياء . وقد يحدث أحيانا أن تنحرف احدى العربات فتســقط من على الجسر وتغوص فى الطين ، فينقطع بذلك صف العربات الطويل اذ تستمر العربات الامامية فى طريقها بينما تتوقف الخلفية وتتوقف معها خطوات الرجال فى أسمالهم الممزقة وأجسادهم الملطخة ينظرون بلا اكتراث الى زميلهم الذى يجـاهد وحده لرفع العربة المحملة ذات الستة عشر « بود » لكى يعيدها فوق الجسر الخشبى .

كانت السماء صافية والشمس من خلالها تصب نارها على الأرض فى اصرار شديد واهتمام بالغ وكأنما كان عليهـا أن تثبت فى ذلك اليوم دون غيره مدى تفانيها واخلاصها فى أداء رسالتها .. وحينما انتهيت من تأملى واستغراقى فى استيعاب كل هذه الامور ، حزمت أمرى وبدأت محاولتى للحصول على عمل . اضفيت على نفسى مظهرا مصطنعـــا من عدم الاكتراث واللامبالاه ثم مشيت بخطى ثابتة نحو الجسر الخشبى الذى يسير عليه العمـــال . كانوا عائدين يدفعون أمامهم عرباتهم الفارغة فناديت عليهم :

ـ صباح الخير ايهـــا الرفاق .. طاب يومكم ..

وكان ردهم عـلى غـير ما توقعت تماما .. كان أولهم رجلا عجـــوزا ذا شعر رمادى ، قد ثنى سرواله حتى ركبتيـه وطوى أكمامه حتى كتفيـــه كاشفا عن جسده البرونزى وعضلاته المفتولة .. لم يسمعنى .. فمضى أمامى دون ان يعيرنى التفاتا .. وكان الثـانى شابا ذا شعر بنى وعيون زرقاء .. القى على نظرة عداء وقلب وجهه ثم اطلق قذفة سباب تناســـب المقـــام ! .. أما الثالث فقد بدا انه يونانى ، اذ انه كان بنى اللون كالخنفسة ذا شـــعر مجعد .. وقد عبر عن اسفه لأن يداه مشغولتان بحيث لا يستطيع أن يقوم

بعقد التعارف اللازم بين أنفى وقبضة يده .. قال ذلك بلهجة هادئة دون ما انفعال بحيث فقدت لهجته التناسب اللازم مع صدق رغبته ! .. وصاح الرابع بكل ما أسعفته به رئتاه من قوة « مرحى .. يا ذا العيون الزجاجية » .. ثم حاول ركلى بقدمه ! ..

اذا لم يجانبنى الصواب ، فان هذا الاستقبال يسمى فى المجتمعات المهذبة « استقبال فاتر » ، لكننى لا أذكر اننى قد حظيت قط بمثله على هذه الصورة المذهلة .. وفى غمرة شعورى بالمهانة وخيبة الأمل ، مددت يدى بطريقة لا شعورية وخلعت نظارتى ثم وضعتها فى جيبى .. واتجهت الى « المقدم » لأسأله عما اذا كان لديه عمل لى ، لكننى قبل أن أصل اليه بادرنى صائحا فى اتجاهى :

ـ انت يا هذا ! .. ماذا تريد ؟ .. تريد عملا ؟

فأجبته بالايجاب ..

ـ هل اشتغلت قبلا على عربة يد ؟

واجبته بأننى كنت أعمل فى نقل القمامة ..

ـ القمامة ؟ .. هذا لا يفيدنا .. القمامة موضوع آخر .. نحن ننقل الملح هنا ، وليس القمامة .. يمكنك الذهاب الى الشيطان والبقاء الى جوار .. هنا .. هنا .. يا « ذا العظام الجيدة » .. ضع حملك هنا عند قدمى .

كان « ذو العظام الجيدة » هذا كتلة هرقلية له شارب طويل وانف أحمر متورم . قلب عربته مصدرا صوتا خشنا كصوت الخنزير ، واخذ الملح يهيل من العربة بينما « ذو العظام » يسب و « المقدم » يبادله السباب بصوت أعلى ثم ابتسم كل منهما للآخر فى تفاهم تام وهما يتجهان نحوى . قال « المقدم » .. « حسنا .. ماذا تريد ؟ .. وتبعه ذو العظام قائلا .. » ربما جئت فى طلب بعض الملح لنصنع الفطائر .. » .. ثم غمز بعينه للمقدم .

واخذت استعطف المقدم واتوسل اليه مؤكدا له اننى سوف أعتاد العمل بأسرع ما يمكن بحيث أتساوى مع الآخرين فى وقت قصير .

ـ سوف ينقصم ظهرك قبل ان تعتاد هذا العمل .. ولكن .. ما شأنى انا .. فلتعمل .. لكننى لن أدفع لك اكثر من خمسين « كوبك » فى يومك الأول .. انت يا هذا ! .. اعطه عربة .

وخرج ـ من حيث لا أدرى ـ صبى نصف عار ، يلف على ساقيه العاريتين خرقا متسخة تصل حتى ركبتيه . ألقى الصبى على نظرة شك متفحصة ثم قال « هيا معى .. » .. وتبعته الى مكان تكدست فيه العربات فوق بعضها . فأخذت أفحصها لأختار أخفها وزنا ، بينما وقف الغلام يهرش ساقيه ويرقبنى فى صمت الى أن انتهيت من الاختيار فقال لى :

ـ انظر ماذا اخذت ! .. الا تستطيع ان تميز كيف ان عجلتها معوجة ؟ ! ..

ثم سار الصبى مبتعدا عنى قليلا وتمدد على الأرض ..

أخذت عربة أخرى وأسرعت بها حتى لحقت بالرجال الذاهبين لاحضار الملح .. لم استطع الحديث معهم فقد غمرنى شعور غامض بالحزن والضيق ..

كانت وجوهم كلها تنضح قلقا وارهاقا واضحا يجاهدون حتى يظل خافيا .. كانوا متعبين ثائرين .. ثائرين على الشمس التى تلسع جلدهم بلا رحمة .. ثائرين على ألواح الخشب التى تغوص تحت عرباتهم .. ثائرين على «الراب» .. ذلك السائل الغليظ المالح المليء بالبلورات الحادة المدببة التى تمزق اقدامهم ثم تأكل فى الجروح بحيث تصبح اقدامهم فى النهاية كتلة من الآلام المتحركة .. كانوا باختصار ثائرين على كل ما حولهم .. وكان هذا الحنق جليا حيث يمكن ملاحظته من خلال النظرات الواضحة التى يختلسها كل منهم نحو الآخر .. وخلال اللعنات التى تنطلق من حلوقهم الجافة من آن لآخر .

لم يعرنى أحدهم التفاتا .. لكننا حينما دخلنا شريحة الأرض وبدأنا السير على الجسر الخشبى فى اتجاه اكوام الملح الأربعة ، شعرت بضربة فجائية على ظهر ساقى فلما ان استدرت حتى اندفع شخص فى وجهى قائلا .. « ارفع قدمك وتحرك ايها الثقيل ! » فاسرعت برفع قدمى ..

ووضعت عربتى بدأت أجرف الملح لأملأها . وامرنى هرقل أوكرانى كان يقف الى جوارى : ـ

« املأها تماما .. » .. فملأت العربة على قدر استطاعتى .. عندئذ صاح الرفاق خلفى للرفاق أمامى .. » تحركوا .. » فأخذ هؤلاء الأماميون يبصقون فى أيديهم ثم يرفعون عرباتهم بحشرجة عالية وينحنون بشدة ويمطون أجسادهم للأمام ويمدون رقابهم وكأنما ذلك يخفف من ثقل أحمالهم .. أخذت أقلدهم فانحنيت على قدر استطاعتى ومددت جسدى للأمام ثم رفعت العربة فصرت عجلتها صريرا عاليا ، وشعرت بترقوتى توشك أن تنكسر بينما أخذت عضلات ساعدى ترتعش من فرط اجهادها . وخطوت خطوة متعثرة .. فأخرى .. ثم أخذت انحرف تارة الى اليمين وتارة الى الشمال واهتز متعثرا للأمام .. وافلتت عجلة العربة من على الجسر الخشبى فاندفعت فى الهواء وسقطت على وجهى فى الوحل الساخن الغليظ .. واصابنى من يد العربة ضربة على أم رأسى قصد منها اصلاحى واهدائى الى سواء السبيل ! ثم أخذت العربة تنقلب ببطء رأسا على عقب .. وشعرت بالضحكات وصيحات التهكم والاستهزاء وكأنما تضغط على رأسى ليغوص وجهى أكثر وأكثر فى الوحل .. وشعرت بآلام حادة فى صدرى وأنا أحاول رفع العربة المقمورة .. صحت مناديا الأوكرانى الذى كان واقفا الى جانبى « ساعدنى أيها الصديق » .. لكنه كان مغرقا فى الضحك واضعا يداه فى وسطه ـ يتمايل الى الأمام والخلف ، لا يكاد يتمالك نفسه .. أجابنى قائلا :

ـ انت أيها اللقيط ! . يا آكل الطين ! .. هل نزلت تخوض فى الوحل ؟! .. أعد العربة الى الجسر . اضغط على الجانب الأيسر .. تك .. تك .. سوف تغوص فى « الراب » اذا لم تأخذ حذرك ! .

ثم ضحك مرة أخرى واستمر يضحك ممسكا وسطه بين يديه حتى اغرورقت عيناه .. كان الرجل العجوز ذو الشعر الرمادى أمامى ، التفت نحوى ورشقنى

بنظرة احتقار ثم طوح بذراعه قائلا فى غيظ «بحق الشيطان .. لماذا لا يستطيع الثبات فى سيره على الجسر ؟» ثم دفع عربته وتركنى مزمجرا ..

مضى من كان أمامى من الرجال فى طريقهم بينما وقف من كانوا خلفى يرقبوننى بامتعاض وأنا أجاهد لانقاذ عربتى .. تصبب منى الطين والعرق ولم يقدم لى أحد يد المساعدة .. وأتى صوت « المقدم » من فوق كومة الملح ماذا يعطلكم أيها الأبالسة ؟ .. أيها الكلاب .. أيها الخنازير .. اغربوا من أمامى .. تحركوا لعنة الله عليكم ! » .

وقال الأوكرانى بخشونة « افسح الطريق » ثم مضى بجانبى فى جلبة وصخب وهو يكاد يضرب جانب عربتة فى رأسى ! ..

تركونى وحيدا .. لكننى استطعت بطريقة أو أخرى أن أجذب العربة التى خرجت فارغة ملطخة بالطين ، فاسرعت ادفعها أمامى خارج الشريحة وفى نيتى أن ابدلها بأخرى .. وسمعت صوتا يخاطبنى :

ـ هل اخذت عربة طائرة أيها الرفيق ؟ ! .. لا عليك ، أن هذا يحدث للجميع فى البداية ..

نظرت حولى لأتبين صاحب الصوت فرأيت شابا فى العشرين يتربع على لوح خشبى فوق الطين بجوار كومة ملح .. كان يمص كف يده .. هزرأسه لى ولمحت عيناه تطلان من بين أصابعه .. رحيمتان باسمتان ... قلت له :

ـ لست مبتئسا .. وسوف أعتاد العمل بسرعة ... ماذا أصاب يدك ؟..

ـ انه خدش بسيط ، لكن الملح يأكل فيه .. اذا لم تمتص الملح من الجرح فقد تترك العمل أيضا لانك لا تستطيع استعمال يدك المصابة .. لكن من الافضل أن تسرع بالعودة الى عملك قبل أن يبدأ المقدم نداءه عليك .

وعدت مسرعا .. سارت الأمور على ما يرام مع الحمل الثانى ، ونقلت حملا ثالثا ورابعا ، وحملين آخرين .. لم يعرنى أحد أى التفات .. وقد سررت لذلك كثيرا رغم أنه ربما بعث الضيق فى نفسى لو كانت الأمور تسير فى ظروف عادية .

صاح شخص ما « حان وقت الغذاء .. » فزفر الرجال زفرة ارتياح ثم توجهوا لتناول غذائهم . لكن حركتهم كانت تفتقر الى الحماس اللازم فى ظرف كهذا متناقلين معرضين فى اشمئزاز وغيظ مكتوم .. وبدا كأنما الراحة لا تجلب أى ترويح للطعام التى عذبها العمل أو العضلات التى أرهقتها حرارة الجو . شعرت بألم فى ظهرى وكتفى وساقى لكننى جاهدت لاخفاء ذلك ومشيت بنشاط نحو قدر الحساء .

وصاح عامل عجوز يرتدى قميصا ممزقا أزرق اللون « قف يا هذا ! » .. كان لون وجهه فى زرقة لون قميصه من أثر الخمر وحاجباه كثان يضمهما مقطبا الى عينين ناريتين تشعان فى قسوة وسخرية .. تساءل متجهما :

ـ قف يا هذا .. ما اسمك ! .

وذكرت له أسمى .

ـ .. ممم .... ان أباك كان مففلا كبيرا حين خلع عليك مثل هذا الاسم . أن من يحمل اسم « مكسيم » غير

مسموح له بالاقتراب من قدر الحساء فى يومه الأول .

كل من يحمل اسم « مكسيم » عليه أن يقتات من زاده الخاص فى أول يوم له هنا ...

أرأيت ؟ .. كان الأمر يختلف لو أن اسمك كان « ايفان » أو غيرة ، فأنا على سبيل المثال ، اسمى « ماتفى » ، ولهذا السبب استطيع الحصول على غذائى من القـــدر .. أما « مكسيم » فانه لا يحصل على غدائه ويستطيع فقط أن يشاهدنى وأنا أتناول غذائى .. ابتعد عن هذا القدر ! ....

ونظرت للرجل فى دهشة ، ثم مشيت بعيـدا وجلست على الأرض .. لقد أذهلتنى هـــذه المعاملة الغريبة . فلم يحدث أن صادفت مثلها فى حياتى قط ، ولا شك اننى لم أفعل ما استحق عليه مثل هذه المعاملة الشـــاذة .. لقد صادفت مجموعات كثيرة من العمال قبل ذلك وعشـت فى وسطهم وعملت معهم وكانت علاقاتنا بسيطة أخوية منذ اللحظة الأولى .... أن هناك شـيئا غريبا فى هؤلاء الرجال .. ثارت فى رأسى علامات استفهام كبيرة رغم كل ما نلته من اهـــانة وتحقير .. شعرت برغبة شديدة فى أن أكتشف سر هذا اللغز..

وحين وصلت الى هذه النقطة فى سلسلة تفكيرى جلست هادئا فى انتظار العودة الى العمل أرقب العمال وهم يتناولون غذائهم دون أن يفضح مظهرى تلك الثورة التى اعتملت فى نفسى وتصـميمى على معرفة سبب معاملتهم لى بمثل هـذه القسوة .

فرغ العمال من الأكل والتجشأ .. وبدأوا يدخنون ويتمشون بعيـدا عن القدر ..

ســـار الهرقل الأوكرانى والغلام ذو السيقان المربطة فى اتجاهى ثم جلسا أمامى فاعترضا مجال رؤيتى لصـف العربات المتروك فوق الجسر . سألنى الأوكرانى :

ـ هل تدخن أيها الرفيق ! .

ـ أشكرك .. هذا لا يضير ..

ـ أليس معك دخان ؟

ـ لو كان معى ما أخذت دخانك .

ـ هذا صحيح ! .. خذ

وناولنى سيجارة ، ثم أكمل حديثه :

ـ هل تنوى الاستمرار هنا ؟

ـ سأبقى طالما وجدت بنفسى القدرة على البقاء !

ـ مممم ... من أى بلد أنت ؟

وذكرت له بلدى ، فسألنى :

ـ أهى بعيدة عن هنا ؟

ـ حوالى ثلاثة آلاف « فرست » .

ـ .. أوه .. أنها بعيدة جـــدا . ما الذى جاء بك الى هنا ؟

ـ نفس الشىء الذى دفعـــك للحضور !

ـ اذن فقـد طردوك أنت الآخر من بلدك لأنك ضبطت متلبسا بالسرقة !

وأيقنت أن الرجـل قد استدرجنى لقفشة فتساءلت بسرعة :

ـ ماذا ؟ .. ما هذا ؟

ـ لقد جئت أنا الى هنا لأننى طردت من بلدى بسبب السرقة ، وقـد قلت لى الان انك قد جئت لنفس السبب !

ـ ثم انفجر ضاحكا وقد سره أنه قد استدرجنى لهذه القفشة . ولم يقل له رفيقة الآخر شيئا وانما غمز له بعينه

وابتسم فى دهاء . بادرته قائلا :

ـ انتظر ....

فقاطعنى :

ـ لاوقت للانتظار أيها الرفيق . يجب علينا العودة الى العمل .. هيا بنا .. خذ عربتى وانتظم فى الصف خلفى .. ان عربتى جيدة يمكن الاعتماد عليها .. هيا بنا .. وبدأ يسير .. كنت على وشك أن آخذ عربته لكنه قال بسرعة :

ـ دع الأمر لى .. سوف آخذها بنفسى .. اعطنى عربتك ، وسوف أضع عربتى داخلها لكى تذهب راكبة بعض الوقت فتستريح قليلا ..

سرت الى جانبه وقد أثار تصرفه هذا شكوكى .. كانت عربته مقلوبة داخل عربتى فأخذت أتفحصها جيدا لأتأكد من أنه لا يدبر لى مقلبا .. لكننى لم الاحظ شيئا سوى أننى قد اصبحت بلا مقدمات محور اهتمام الجميع وان جاهدوا لاخفاء ذلك ..

أخذ الهمس يسرى بينهم بينما غمزاتهم وايماءاتهم كلها تتجه نحوى . وتأكدت من اننى لابد وان أكون على حذر .. كانت تجربتى معهم تؤكد لى أن أى شىء يحيكونه ، يكون على درجة فائقة من الحبكة والاتقان .

وأخيرا قال الأوكرانى :

ـ هاقد وصلنا ..

وأنزل عربته ثم دفع بها فى اتجاهى قائلا :

ـ هيا .. املأها .

نظرت حولى .. كان الجميع منهمكين فى عملهم ففعلت مثلهم وبدأت أملأالعربة بالجاروف .. وسكن كل صوت الا صوت الملح يتدحرج من الجواريف .. وبعث هذا الصمت فى نفسى حزنا مبهما فشعرت بأن الرحيل عن هذا المكان كسب كبير .. وسمعت « ما تفى » ذو الوجه الأزرق يأمرنى :

ـ هذا يكفى .. هل غلبك النعاس؟..

تحرك .

أمسكت يدى العربة ودفعتها للأمام بجهد كبير ، فشعرت بألم شديد فى راحتى يداى جعلنى أصرخ وتركت العربة على الفور ، وسبب لى ذلك آلاما أشد من السابقة . فقد سلخ جلد كفاى .. ضغطت على أسنانى فى غيظ وألم وأخذت أفحص يدىالعربة فوجدت أنهما قد شرختا عند حافتيهما الخارجيتين ، وحشر فى الشق قطع رفيعة من الخشب بحيث يظل مفتوحا وقد عمل ذلك بطريقة متقنة يصعب اكتشافها . قدر الفاعل أنه عندما أمسك بيدى العربة وأضغط عليهما فان جلد يدى يدخل فى الشق وتقفز قطع الخشب من مكانها ليضم الشق ممسكا بجلد يدى .. لم يخطىء الفاعل التقدير، وكان ما كان ..

رفعت رأسى ونظرت حولى فصفعت وجهى صيحات الاستهزاء والتهليل والتهكم والسخرية وكل الوجوه تنظر متفحصة وعليها ابتسامات كريهة ..

تعالت لعنات « المقدم » . من فوق كومة الملح ولكن أحدا لم يعبأ به .. كنت أنا محط اهتمامهم جميعا نظرت حولى نظرة فارغة زائغة وفى داخلى احساس يفلى بالألم . شعرت بكراهية شديدة نحو هؤلاء الرجال ورغبة عارمة فى أن أثأر لنفسى منهم .. كانوا يتزاحمون أمامى ، يضحكون ويسبون ويعلقون ورغبتى تزداد حدة فى أن أحقرهم وأنال منهم جميعا ..

اقتربت منهم ملوحا يدى وصحت بأعلى صوتى « أيها الوحوش .. » وأخذت ألعنهم بكل كلمات السباب التى قذفونى بها .. سرت رجفة فى صفوفهم وبدأوا يتراجعون فى قلق فيما عدا الأوكرانى و « ماتفى » ذو الوجه الأزرق اللذين ثبتا فى مكانيهما وبدأ كل منهما يشمر أكمامه فى هدوء . تمتم الأوكرانى فى نشوة دون أن يرفع عنى عيناه .. « تقدم .. تقدم .. » وقال له «ماتفى» مشجعا .. « عليك به يا جارفيلا » .. صحت فيهم جميعا « لأى سبب تفعلون بى ذلك ؟ .. هل آذيت أحدا منكم ؟

ألست انسانا مثلكم ؟ .. » وهتفت بكلمات أخرى حمقاء ، لا معنى لها ، وجسمى كله يرتعش من شدة الغضب .. كنت فى نفس الوقت مترقبا آخذا حذرى منهم حتى لا أكون هدفا سهلا للمزيد من حيلهم ، ولكن الوجوه الممسوخة الماثلة أمامى لم تفتقد مسحة عطف واشفاق .. بل ان بعضها كان عليه تعبير صريح عن الشعور بالاثم .. حتى ماتفى والاوكرانى اللذين تراجعا خطوة أو اثنتان الى الوراء . أخذ ماتفى يجذب طرف قميصه والأوكرانى يعبث فى جيوبه وأنا أهتف فى اصرار .. « لماذا تفعلون بى ذلك ؟ ما الذى يدفعكم الى ايذائى؟ .. » ظلوا صامتين .. الأوكرانى يعبث بسيجارة ووجهه الى الأرض ، وماتفى يسير مبتعدا حتى أصبح أبعد الجميع عنى ، بينما هرش الجميع رؤوسهم فى كآبة ثم استداروا كلهم عائدين الى العربات حينما أتى « المقدم » صائحا ملوحا .. حدث ذلك كله فى لحظات حتى أن النسوة اللائى كن قد توقفن عن العمل عند سماعهن صرختى لم يصلن الا بعد أن انفض الرجال ..

تركت وحيدا أحس بالمرارة فقد تركت هكذا دون أن يلقى الضرر الذى لحق بى حقه من الاهتمام ودون أن أثأر لنفسى أو أسترد اعتبارى .. وشق على أن أحتمل كل ذلك .. كنت فى حاجة الى اجابة تشفى غليلى وتطفىء ظمىء الى الثأر فصحت فيهم « لحظة واحدة أيها الرفاق .. » فتوقفوا واستداروا نحوى فى اكتئاب .. « أخبرونى .. لماذا أردتم ايذائى ؟ . لابد وأن لكم ضمائر تود مثلى أن تعرف السبب .. » لكنهم ظلوا صامتين وكان صمتهم هو الاجابة على كل تساؤل .. تمالك نفسى تماما وبدأت أحدثهم كيف اننى انسان مثلهم فى حاجة الى القوت ولهذا جئت أعمل معهم كواحد منهم يربطنا جميعا وحدة المصير ولم يخطر ببالى قط أن أتعالى عليهم أو أفكر للحظة فى أننى أرفع منهم شأنا .. وقلت فى نهاية كلامى « كلنا متساوون ويجب علينا جميعا أن نفهم بعضنا البعض وان يساعد كل منا الآخر على قدر أستطاعته .. » .

وقفوا يستمعون فى انتباه متجنبين النظر الى عيناى ، وشعرت أن كلماتى لها صدى فى نفوسهم فألهمنى ذلك وبعث فى نفسى الأمل . نظرت حولى نظرة سريعة فلمست مدى تأثرهم واقتناعهم وملأنى شعور غامر بالفرح فألقيت بنفسي على كومة ملح وأخذت ابكى بشدة .. حينما رفعت رأسى ألفيت نفسى وحيدا .. كان يوم العمل قد انتهى وجلس العمال فى جماعات متناثرة بقرب كومة الملح .. كانوا يكونون فى مجموعهم بقعا قاتمة فوق الملح الذى خضبه ضوء الشمس بلون وردى .. الهدوء شامل والبحر يبعث بنسمة والسماء تعبرها سحابة بيضاء تخطر فى بطء وتراخ تاركة خلفها من لحظة لأخرى قطعا متناثرة من الضباب تبتعد عنها لتذوب فى الفضاء الأزرق الفسيح .. كان الجو كله مفعما بالحزن ..

نهضت من مكانى وسرت بخطى ثابتة تجاه كومة الملح وقد عقدت العزم على وداعهم لأعود أدراجى الى كوخ الصيد .. وحينما اقتربت نهض عدد منهم وساروا لمقابلتى .. ماتفى والأوكرانى والمقدم وثلاثة آخرون من ذوى الرقاب الخشنة ! .. وقبل أن أجد فرصة للكلام مد « ماتفى » .. يده دون أن ينظر الى وقال « اسمع أيها الرفيق .. يجدر بك أن ترحل وتذهب لشأنك .. لقد جمعنا لك مبلغا صغيرا من المال .. خذه » .. كان فى يده بعض القطع النحاسية والتى رنت حينما بسط يده نحوى .. أذهلتنى المفاجأة فوقفت أنظر اليهم دون أن أنطق بحرف وقد وقفوا جميعا مطأطأى الرؤوس فى صمت ، يعبثون بأسمالهم الممزقة فى غباء ويميلون من قدم على قدم ويتلفتون حولهم أو يهزون أكتافهم .. كل حركة من حركاتهم تكشف عن رغبتهم فى الخلاص منى بأسرع ما يمكن .

دفعت يـــد « ماتفى » قائلا « لن آخذها » فرد قائلا :

ـ هيا .. لا تتعمد مضايقتنا هكذا ، فنحن لسنا قوما سيئين الى هذا الحد. اننا نعلم جيدا اننا قد آذينا شعورك ، ولكن ما حيلتنا ؟ انك اذا تفحصت الأمر جيدا لوجدت أنه لا لوم علينا ، وانمـا اللوم كله لطريقة معيشتنا هنـــا .. عيشتنا هنا عيشة الكلاب ! .. العربة ذات الســـتة عشر بود ، الراب الذى يبرى أقدامنـــا والشمس التى تلسع ظهورنا طول النهار .. وخمسون كوبك فى النهاية .. ان ذلك كله كفيـــل بأن يحيل أى انسان الى وحش ضـــار .. تعمل وتعمل وتكدح طول النهـــار ثم تشرب بما عملت وتعود الى العمل من جديد .. تلك هى البداية والنهاية .. اذا ما عشت هذه الحياة لخمسة أعوام متصلة فان عنصر الانسان فيك يموت ولا يبقى منه شيء وتستحيل وحشا.. هذا هو كل شيء .. اسمع أيهـــا الرفيق .. اننا نبادل بعضنا البعـض ما هو أسوأ بكثير مما فعلناه بك .. نحن اصدقاء ألداء .. اذا صح القـول .. بينما انت وافد جديد .. فلماذا نترفق بك ؟ .. هذا هو الموقف .. ان ما قلته لنـــا صحيح وسليم للغـــاية ، لكنه لا يناسبنا .. فما كان واجبا أن نأخذ ما حدث هذا المأخذ .. لقد كنا نهزل .. ثم .. اننا نحس ولنـــا قلوب .. من الأفضـــل أن ترحل لتفكر على طريقتك وتدعنا هنا نفكر على طريقتنا .. خـذ هذا المبلغ الصغير وارحل عنا تصحبك السلامة .. نحن لم نؤذك .. وأنت لم تؤذنا .. صحيح ان الأمور قد ساءت ، ولكن ماذا كنت تتوقع ؟ .. ان الأمور لا تتحسن هنا ، ولن تكسب شـــيئا ببقائك فأنت لا تصلح لهذا المكان .. لقد اعتدنا بعضنا البعض ، وأنت لست منا ، فلا جدوى من بقائك بيننا وعليك أن ترحل الآن لتعيش كيف تشـــاء .. تصحبك السلامة ! » .

نظرت اليهم .. كان واضـــحا انهم يشاركون « ماتفى » رأيه فأمسكت كيس متاعى وطوحت به على ظهرى وهممت بالرحيل حين وضع الأوكرانى يده على كتفى قائلا :

ـ « لحظـــة من فضلك .. دعنى أضيف شيئا .. لو كان الأمر يتعلق بأى مخلوق غيرك لأعطيتـــه لكمـة فى فكه للذكرى .. لكن أحد لم يلمسك بسوء بل اننا جمعنا لك مبلغا من المـــال كهدية .. كان الأجدر بك أن تشكرنا على ذلك » ..

وبصق .. ثم أخذ يلف كيس دخانه بسرعة وكأنه يريد أن يقول « تأمل .. كم أنا لبـق ! » وســحقنى كل ذلك فأسرعت أستودعهم وبدأت سيرى مرة أخرى بحذاء الشاطىء لكى أعود ادراجى الى كوخ الصـيد الذى قضيت فيـه ليلتى ..

كانت السماء صافية والجو حـارا والبحر واسعا ساحرا تتدحرج موجاته الصغيرة الخضراء هادرة على الشاطىء.. شعرت لسبب أو لآخر بالألم والخزى، وأخذت أجر أقدامى ببطء فوق الرمال الساخنة .. الشمس ساطعة والبحـر يشع فى هدوء وطمأنينة والأمواج تهمس بشيء حزين غير مفهوم .

حينما وصلت كوخ الصيد نهـض صديقى الصياد ليقابلنى قائلا :

ـ لم يعجبك مذاق هـــذا الملح .. هـه ؟ !

قالها بلهجة من يشعر بالرضـا لأن نبوءته قد ثبت صحتها .. فنظرت اليه فى صمت .. قال مؤكدا :

ـ هل كان الملح أزيد من اللازم ؟ ! .. اجائع أنت ؟ .. هيا تعال وتناول بعضا من العصيدة .. لا أدرى لماذا يطهون كل هذه الكمية ، فقد تبقى نصفها .. هيا شغل ملعقتك .. عصيدة من الدرجة الأولى بأســـماك « الفـــلاوندر والاسترجون » ..

وبعد دقيقتين كنت جالسـا فى الظل بجانب الكوخ .. متسخا .. مرهقا .. جائعا .. أتناول وجبة لا طعم لها .. عصيدة من الدرجة الأولى بأســـماك الفلاوندر والاسترجون ..